الأبوة فى المجتمع العربى

١ ـ الأبوة فى الجاهلية
٢ ـ الأبوة العربية فى الرسالة المحمدية وفى شخص الرسول الكريم

الابوة فى الجاهلية

حين تهيأت للكتابة عن بنات النبى صلى الله عليه وسلم، بدأت أقرأ فى كتب السيرة والحديث والتاريخ ، لأستخلص منها مايتصل بهؤلاء الكريمات اللواتى شرفن بأمجد أبوة عرفتها البشرية منذ كانت • غير أنى ما كدت أمضى فى القراءة ، حتى وجدت أنى لن أستطيع الوفاء بحق الموضوع، اذا لم أبدأ قبل كل شىء بدراسة متفرغة لأبوة محمد ، وهى دراسة شاقة ، تحتاج دون ريب الى خبرة دقيقة بالمجتمع العربى ومعرفة مكان الأبوة فيه ، لكى يكون لنا من هذا كله مايجلو صورة الأب الرسول ، ويزيدنا ادراكا لنواحى السمو والجلال فيها

والحديث عن الأبوة فى المجتمع العربى ، حديث يطول ، وأخشى اذا أنا أرسلت قلمى يكتب فيه ملء عنانه ، أن يستغرق أكثر القدر المفروض لهذا الكتاب أو يجور على الموضوع الاصيل الذى يحدده عنوانه ، ومن ثم رأيت ضبطا للتناول ، أن أنسقه فى أجزاء ثلاثة : ألم فى أولها بالأبوة العربية كما تصورها الحياة الجاهلية ، وأنتقل منها الى هذه الأبوة كما تبدو فى الرسالة المحمدية ، ومن ثم فى شخص الأب الرسول

أما الأبوة العربية كماتصورهاالحياة الجاهلية ، فربما بدا لأول وهلة ، أنها غير ذات اتصال قريب بموضوعنا ، لكنا اذا ذكرنا أن محمدا صلى الله عليه وسلم تزوج قبل أن يبعث بخمسة عشر عاما ، وأن بناته الاربع جميعا قد ولدن فى الجاهلية ، وأدركن المبعث وثلاث منهن متزوجات ، اذا ذكرنا هذا ثم أضفنا اليه مانعرف من احتكام الوراثة وأثر البيئة ، بدت لنا صلة « الأبوة العربية فى الجاهلية » بموضوعنا ، قوية وثيقة الى حد لايسمح لنا بتجاهلها أو التغاضى عنها ، حين نحاول أن نتحدث عن«محمد» فى أبوته

ذلك لأنه اذا كان المنهج العلمى ، يأبى علينا أن نبتر شخصا من بيئته التى صنعته ، أو أن نفصل بينه وبين آبائه وأجداده الذين تنقل فى أصلابهم جيلا بعد جيل،فنحن أولى بألا نقترف هذا الخطأ ، فى الحديث عن بشر رسول ، طالما اعترف بفعل الوراثة فى مثل قوله : « تخيروا لنطفكم فان العرق دساس » أو قوله : « ... لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبة الى الارحام الطاهرةمصفى مهذبا،لاتتشعب شعبتان الا كنت فى خيرهما » كما طالما اعتز بأصله القرشى ، وباهى بأنه ابن امرأة من قريش تأكل القديد

وهذه الفطرة البشرية السوية فى رسولنا ، التى تعدها الانسانية ـ كماقلت غيرمرة ـ على اختلاف الاديان والاجناس، وعلى مر الأحقاب والأدهار ، من آيات عظمته وأسرار بطولته،

هذه الفطرة السنوية هى التى تجعلنا نرجع بالحديث عن أبوة «محمد» الى ماض قريب وبعيد، ملتمسين من صميم البيئة العربية منذ جاهليتها ، الاصـــول الاولى للابوة التى تجلت لنا فى « محمد بن عبد الله » قبل مشرق الاسلام ، ثم بعد أن اصطفاه الله نبيا رسولا

والملحظ الاول الذى نسجله هنا ، هو أن المجتمع العربى فى الجاهلية قد كان يخضع لنظام القبيلة ، وللابوة فى هذا النظام مقام جليـل وشـأن ذو خطر ، ذلك لان القبيلة فى أصلها لاتعدو أن تكون فروعا تكاثرت من جـذر واحـد هو الاب الذى تنتمى اليـه . ثم ، بمضى الزمن تنمـو الفروع فيغدو كل منها قبيلة مستقلة ، على نحو مانرى فى انفصال الخلايا الحيوية أو الاجتماعية عن أصلها الاول ، عندما تتهيأ لها مقومات الحياة مستغنية عن ذلك الاصل

ويحدث أحيانا ، وبخاصـة فى الاطوار البـدائية ، أن تنتمى القبيلة الى الام ، وهو طور عرفته العربية فى جاهليتها القديمة ، وبقيت منه آثار فيهـا حتى بعـد أن تطورت الى الدور الابوى

وطبيعة هذا النظام ، تجعل شيخ القبيلة ـ الذى هو فى الواقع أبوها الكبير ـ ملكا غير متوج ، وحاكمـا لايعصى له أمر ، فمن حدثته نفسه بالخروج على سـلطانه ، كان الخلع والطرد والنبذ من مجتمع القوم

وما بنا من حاجة الى التماس الشواهد على ما كان للاب من مكانة فى الجاهلية العربية ، فما ذاك بالامر الذى يخفى،

ولنا أن نقول بعد هذا ان لقريش على وجه الخصوص ، أن تدعى فضل تمثيلها لأعز ماعرف المجتمع العربى من تكريم للابوة ، ان كانت هى القبيلة التى ذهبت بأكثر ما للعرب فى الجاهلية من أمجاد ، واجتمع لها من العزة والمنعة والجاه والشرف ، ما لم يجتمع مثله لقبيلة أخرى غيرها . فلا ريب أن اعتزت بالاصول والآباء ، وحرصت على نقاء النسب وتخير الارحام ، وآية ذلك مانرى من تسجيلها لنسب بطونها وأفخاذها ، ماضية به الى آلاف السنين ، لم يفتها منه أم ولا أب ، على مانعرف من صعوبة ذلك والأمية فيهم فاشية ، والعهد بهم جد قديم . ولمن شاء أن يطعن فى صحة هذا المروى عن سياقة النسب من قريش الى اسماعيل جدهم الاعلى ، فلن نبذل جهدا لننفى شيئا من هذا أو نثبته ، ولا علينا هنا أن نجادل المنكرين فى الذى زعموا من أن سلسلة النسب هذه من صياغة الرواة واختراع كتاب السيرة فى عصور متأخرة ، بعد الذى تم لقريش من مجد الدهر باختيار الرسول العربى منها ونزول القرآن المعجز بلسانها ، وانما حسبنا أن نقول ان حرص القوم على سياقة النسب ، يحمل وحده دليل احتفالهم بالاصول وعنايتهم بالاعراق ، وليس يضعف هذا الدليل أن تكون الانساب قد اخترعت بأخرة ، بل ان هذا الاتهام ـ ان صدق ـ أبلغ فى الدلالة على ما للابوة من خطر فى تقدير القوم ، والا لما عناهم قط أن يجهدوا أنفسهم باختراع سلاسل من الانساب يسدون بها الثغرات التى تركتها أنامل الزمن فى تاريخ العرب الطويل

والحق أن الاعتزاز بالأبوة كان أظهر مايميز المجتمع

العربى ، وأن تكريم الآباء قد كان تقليدا متبعا ، فمن ارتاب فى هذا فليذكر أن العرب يبدأون تاريخهم الدينى بقصة جدهم الذبيح الذى جاد بالحياة طاعة لابيه ، وتجنيبا له من ذنب عصيان الخالق ، ثم يختمون تاريخهم الدينى فى الجاهلية، بقصة بنى عبد المطلب الذين ماترددوا فى طاعته يوم أخبرهم بنذره ليذبحن أحدهم لله عند الكعبة ، لو بلغوا عشرة ، بل لبوا طائعين ومضوا يحملون قداحهم الى الكعبة حيث وقفوا هنالك بجانب أبيهم الشيخ ، ينتظرون أيهم يكون الذبيح

ولنذكر كذلك أن العرب لم يجدوا ما يبررون به عبادتهم للاوثان بعد أن دعاهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى التوحيد ، الا أنهم وجدوا آباءهم لها عابدين

وما نقموا على « محمد ، صلى الله عليه وسلم » شيئا كما نقموا عليه أن شتم آباءهم وسفه أحلامهم وعاب آلهتهم ، بل ان « أباطالب » نفسه ـ عم النبى وكافله ـ ود لو تبع ابن أخيه ، لولا أن وجد غضاضة فى مفارقة دين آبائه ، فقال معتذرا : « أى ابن أخى، انى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه ، ولكن والله لايخلص اليك بشىء تكرهه ما بقيت » ـ السيرة ١/٢٦٤

وكذلك فعلت العرب البائدة فى سالف الحقب وغابر الدهور : ردوا رسلهم بمثل ماردت به قريش رسولها ، فقوم عاد قالوا : « أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟ »

وقوم شعيب قالوا : « ياشعيب ، أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ... انك لأنت الحليم الرشيد ! »

واتل عليهم نبأ ابراهيم « اذقال لأبيه وقومه : ماتعبدون؟ قالوا : نعبد أصناما فنظل لها عاكفين. قال : هل يسمعونكم اذ تدعون ؟ أو ينفعونكم أو يضرون ؟ قالوا : بل وجـــدنا آباءنا كذلك يفعلون »

هم الآباء دائما : سنتهم عبادة ، ودينهم ميراث، واتباعهم فرض محتوم

ونظام القبيلة ، الذى جعل للأبوة مثل تلك المكانة فى المجتمع العربى القديم ، هو نفسه الذى جعل العرب يتعلقون بالبنين ويحرصون على الانجاب ويباهون بكثرة الولد ، اذ كانت القوة والكثرة ، هما مناط العزة والمنعة ، وقوام الحياة فى مجتمع كهذا يقوم على التنافس بين القبـائل والتزاحم على موارد العيش . فلا عجب أن صارت كثرة الولد نعمـة ما بعدها نعمة ، كما صار تعـدد الزوجات ظاهرة طبيعية لا غرابة فيها ولا شذوذ

ونذكر هنا ـ للمرة الثانية ـ حديث «عبد المطلب» جد الرسول ، وقد انتهت اليه سقاية الحجيج وراثة عن جده « قصى » فكان يلقى فى سبيل ذلك كل المشقـة والعناء . واذ يطيـل التفكير فيمـا تناقله الرواة عن بئر زمزم التى طمرت تحت رمال الزمن ، تلح عليـه الرؤى فى أن يمضى للتنقيب عن البئر المبـاركة التى بثت الحيـــاة فى الوادى الأجرد ، منذ فجرها الله للجد الأعلى اســـماعيل . فيمضى « عبد المطلب » ومعه ابنه الحارث وليس له يومئذ ولدغيره، فما كاد يجىء بالمعول ويبدأ فى الحفر حتى قامت اليه قريش،

تقسم ألا تتركه يحفر فى ذلك المكان الذى شاءت الاقدارأن يقع بين الوثنين الكبيرين : « اساف ونائلة » وأدرك عبد المطلب أن قريشا انما استضعفته لقلة ولده ، فنذر لئن ولد له عشرة أبناء ثم بلغوا معه بحيث يمنعونه ، لينحرن أحدهم لله عند الكعبة ، ثم تلا ذلك ما هو ذائع معروف من انطلاقه ببنيه العشرة الى الكعبة ، وخرج السهم على عبدالله ـ أصغر بنيه ـ فهم بذبحه لولا أن كان الفداء !

وأعود فأقرر هنا ماذكرته آنفا ، من أن الشك فى حدوث هذه القصة ، لاينفى بحال ما ، دلالتها الصادقة الامينة ، على الاعتزاز بكثرة الولد فى مجتمع القبائل ، حيث لا أمل لاحداها فى البقاء ، اذا لم يكن لها من أبنائها من يمنعونها ويحمون حماها

▭

ولا أريد أن أدع الحديث عن الابوة والبنوة عند العرب الأولين ، دون أن أعرض هنا مشهدا انسانيا مؤثرا ، سجل به القرآن ما لعاطفة الابوة من سلطان قاهر لاقبل لبشر بمقاومته ـ حين يدعو الواجب ـ ولو كان من الانبياء المصطفين . ذلك هو مشهد « نوح » عليه السلام ، حين وقف ومن اتبعوه فى سفينته وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ، ينادى ولده الذى اعتزله وأبى أن يصدق برسالته:

« يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال : سآوى الى جبل يعصمنى من الماء . قال : لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم . وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقيل : يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى . وغيض الماء وقضى الأمر

واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين • ونادى نوح ربه : فقال : رب ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين • قال : يانوح انه ليس من أهلك ، انه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم انى أعظك أن تكون من الجاهلين • قال : رب انى أعوذبك أن أسألك ما ليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين • قيل : يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك » هود : ٤٢ : ٤٨

فيا للابوة الرحيمة تأبى أن تلعن الولد الكافر أو تبرأ منه أو تدعو عليه

ويا للآيات المعجزة ، تأبى أن تجحد بشرية الانبياء أو تبرئهم من نوازع الغريزة الابوية التى لولاها لما قامت حياة

ويا للاله الكريم ، يصغى الى دعاء الاب للابن الضال ، فلا يجد — سبحانه — فى هذا المظهر الانسانى ما يستحق به نوح أن ينحى عن مكانه كنبى يدعو الى الحق ، بل يكتفى بأن يعظه ، ثم يأذن له أن يهبط بسلام من الله وبركات عليه وعلى أمم ممن معه !

وسلام على ابراهيم اذ يدعو ربه : « رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام • رب انهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فانه منى ، ومن عصانى فانك غفور رحيم »

هل لنا أن نقول بعد هذا كله ، ان علاقة الآباء بالابناء فى المجتمع العربى ، بلغت من القوة مبلغا لا يعرفه مجتمعنا

العصرى الحديث ، الذى يميل بالتدريج نحو الانفصام ، ويتخلى شيئا فشيئا عن تقاليده الموروثة فى الابوة والبنوة ، فيعترف للآباء بحقهم فى تحديد النسل ، كما يعترف للابناء بشخصية كاملة الحرية والاستقلال ، بل ربما اعترف لهم أحيانا بأنهم أحق بالحياة بما هم أصحاب الغد ، وعلى الآباء أن يخلوا لهم الطريق ؟

وقلما يفتش مجتمعنا العصرى عن آباء الرجل وأجداده، بل انه ليميل الى تحطيم الفوارق الاجتماعية بين الطبقات ، على حين كان المجتمع العربى يعتز بكرم الابوة وعراقة الاصل وشرف المنبت ، ويرى فى هذا ومثله مدعاة للفخر الذى مابعده فخر

الأبوة العربية

فى الرسالة المحمدية ، وفى شخص الرسول

أشرق نور الاسلام ، حين اختار الله من بين العرب من يبعثه بآخر رسالات السماء ، فبدا منذاللحظة الاولى ، أنها تدعو الى نبذ دين الآباء ، وتعلن الحرب على الاصنام والاوثان التى ظلوا لها عاكفين

وما كانت قريش لتأبى أن تصغى الى فتاها الامين ، لولا أن جوهر رسالته يقوم على التوحيد ، ولا يرضى بما دون القضاء على الآلهة الموروثة عن الآباء :

« واذا قيل لهم : اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولا يهتدون ؟ »

على أن هذا لايجوز أن يصرفنا عما حف بالابوة فى الرسالة المحمدية من جلال ، أو ينسينا أن الاسلام جعل بر الوالدين تاليا للتوحيد ، ولم يأذن للابن بعقوق الابوين حتى مع الشرك ، بل أقصى ما يباح اذ ذاك هو ألا يطيعهما فى ذلك ، دون أن يهدر حقهما عليه فى أن يصاحبهما فى الدنيا معروفا

وعرض القرآن كذلك للبنوة ، فصرح فى مواضع شتى بأن البنين زينة الحياة الدنيا ، وعدهم من النعم الكبرى التى أنعم بها على عباده :

« يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا »

« المال والبنون زينة الحياة الدنيا »

« ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ثم يطمع أن أزيدا ، كلا ! انه كان لآياتنا عنيدا »

ويقال هنا ان القرآن الكريم حذرنا من الافتتان بالابناء، لما يعلم من اسرافنا فى حبهم والتعلق بهم :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة »

« انما أموالكم وأولادكم فتنة »

لكن هذا التحذير ليس ـ فى الواقع ـ الا اعترافا صريحا بما للبنين علينا من سلطان تعز مقاومته ، وما لهم فى قلوبنا من حب قد يعمى ويصم

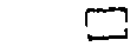

والعلاقة بين الابناء والآباء تأخذ فى الرسالة المحمدية وضعا ساميا ، بحيث لايهدرها اختلاف الدين ولا يفصمها تباين العقيدة . وبلغ من تقدير القرآن الكريم لقوة هذه العلاقة أنه فى تحذير الناس من هول اليوم الآخر ، وصفه بأنه اليوم الذى فيه « يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه »

« يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شىء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد »

وقد تلقى محمد رسالة ربه ، فكان صلى الله عليه وسلم القدوة الصالحة للمؤمنين والمثل الاعلى فيهم ، وقد مضى ينظم حياة الجماعة الاسلامية بوحى من ربه ، ويضع لها التشريع الصالح على هدى الكتاب السماوى الكريم ، فرأى العرب من فعاله صلى الله عليه وسلم ، وسمعوا من أحاديثه ، ما لمس أعمق مشاعر الابوة فيهم ، واستثار أنبل ما فى نفوسهم التى جبلت على توقير الآباء ورعاية الابناء

روى عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الكبائر : الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس »

وقدم الرسول بر الوالدين على الجهاد فى سبيل الله : « جاء رجل اليه صلى الله عليه وسلم فقال : جئت أبايعك على الهجرة وتركت أبوى يبكيان. فقال : ارجع اليهما فأضحكهما كما أبكيتهما »

قد يقال هنا ان قلبه الرحيم رق لبكائهما ، لكنا نسمع أن رجلا جاءه يسأل الاذن فى الجهاد ، فسأله الرسول : ألك أبوان ؟ قال : نعم . قال : ففيهما فجاهد

وحدث الصحابى معاوية بن جاهمة السلمى قال : «أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله ، انى كنت أردت الجهاد معك أبتغى وجه الله والدار الآخرة . قال: ويحك ، أحية أمك ؟ قلت : نعم . قال : ارجع فبرها

« ثم أتيته من الجانب الآخر فقلت : يارسول الله ، انى كنت أردت الجهاد معك أبتغى وجه الله والدار الآخرة ، قال: ويحك ، أحية أمك ؟ قلت : نعم يارسول الله . قال : فارجع اليها فبرها

« ثم أتيته من أمامه ، فأعدت ماقلت،فقال : ويحك ! الزم رجلها فثم الجنة ! »

نسمع هذا ومثله ، فنرى الاصرار النبيل على وضع البر بالوالدين قبل الجهاد فى سبيل الله ، ورفع الابوة الى منزلة لاتساميها منزلة ، اذ تكون الجنة تحت أقدامها

عن أبى أمامة أن رجلا قال : «يارسول الله،ماحق الوالدين على ولدهما ؟ قال : هما جنتك و نارك »

وانه لحق لايهدره الشرك : قالت أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما : قدمت على أمى وهى مشركة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستفتيته قائلة : ان أمى قدمت وهى راغبة ، أفأصل أمى ؟ قال : نعم صلى أمك »

وكذلك لاينقطع هذا البر بالموت : عن مالك بن ربيعة الساعدى قال : بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ جاءه رجل من بنى سلمة فقال : يا رسول الله ، هل بقى من بر أبوى شىء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : نعم ، الصلاة عليهما،والاستغفار لهما ، وانفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التى لاتوصل الا بهما ، واكرام صديقهما »

وانما استحقت الابوة هذه المنزلة السامية ، لما تبذل وتحتمل فى سبيل الابناء ، ولما تمنح من حب صادق وحنان خالص ، ولأنها فى جوهرها بذل وتضحية وايثار ، ورسول الله فى انسانيته الرفيعة أكرم من يقدر هذا وينفعل به . حدثوا أن سبيا قدم على النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة « فاذا امرأة منهم قد تحاب ثديها ، اذا وجدت صبيا فى السبى أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم لاصحابه : أترون هذه طارحة ولدها فى

النار ؟ قالوا : لا ، وهى تقدر ألا تطرحه . فقال : الله أرحم بعباده من هذه بولدها »

وعن عبد الله بن عمر قال :

« كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض غزواته، فمر بقوم ، وامرأة فيهم تحصب تنورها ومعها ابن لها، فاذا ارتفع وهج التنور تنحت به ، فأتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : أنت رسول الله ؟ قال نعم. قالت : بأبى أنت وأمى ، أليس الله بأرحم الراحمين ؟ قال : بلى . قالت : أوليس الله أرحم بعباده من الام بولدها ؟ قال : بلى . قالت: فان الام لاتلقى ولدها فى النار . فأكب رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكى ثم رفع رأسه لها وقال : ان الله لايعذب من عباده الا المارد المتمرد الذى يتمرد على الله ويأبى أن يقول لا اله الا الله »

وعن أبى هريرة قال : « أتت امرأة النبى صلى الله عليه وسلم بصبى لها فقالت : ادع الله له فلقد دفنت ثلاثة. قال: دفنت ثلاثة ؟ لقد احتظرت بحظار شديد من النار »

ولا أجد ما أتوج به هذا الفصل، أفضل من قوله عليه الصلاة والسلام : « لايقاد والد بولده » فلقد سما بالابوة الى حيث لايجوز أن تتهم بقتل الولد عامدة أو مختارة ، فالاصل فى الاب أن يفتدى ولده بالمهجة والروح ، ومحال أن يقتله الا فى لحظة يغيب فيها عن وعيه ويفقد رشده ، أو تحت وطأة ظروف فادحة ، تشل ارادته وتخرجه عن أبوته بل عن انسانيته ، وفى الحالين لايكون مسئولا عن أبشع جريمة !